زُهد المُجّان
في العصر العباسي

دكتور على إبراهيم أبوزيد

أستاذ الأدب العربى
كلية الآداب - جامعة المنصورة

الطبعة الثانية
١٩٩٤

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إهـــداء

إلى الروح الآمنـة المطمئنة
التى رجعت إلى ربها راضية مرضية
روح أبى

وإلى روح الحبيبة الغالية
فلم أعرف الحب بعد رحيلها
روح أمى

وإلى روح الصبى مـازن إبن شقيقتى
ابن الأربعـة عشر ربيعًا
رمز الطهر والنقاء

وإلى روح زهرة الشباب الصديق
حامد بركات
رمزًا للوفاء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شعر التوبة والاستغفار عند المُجّان العباسيين ، من الموضوعات التى تستهدف دراسة ظاهرة من ظواهر الشعر فى العصر العباسى . والطريف فى الدراسة محاولة المزج بين تيارين متضادين ، من تيارات الشعر فى العصر العباسى ، تيار المجون ، وتيار الزهد .

وللمجون أهله ، وللزهد أعلامه . ومن المعروف أن المجون يمثل خطًا بارزا من خطوط الشعر العربى فى العصر العباسى ، ومن المعروف أيضا أن الزهد يمثل اتجاهاً عاماً من اتجاهات الشعر العربى فى العصر العباسى ، لا يقل خطرا وتأثيرا عن خطورة وتأثير الاتجاه الماجن . ولكن الأمر المعنى فى هذه الدراسة هو محاولة البحث عن اتجاه يجمع بين الاتجاهين ، ونغمة تصدر عن النغمتين ، نغمة الهزل والعبث والمجون فى بداية الأمر ، ثم عدولها إلى نغمة أخرى هادئة تعبر عن الزهد والتوبة واستغفار هذه الطائفة الماجنة من ذنوبها .

ومن الشعراء العباسيين من عُرِف بالمجون ، واشتُهر به ، ولم يرجع عنه ، ومن الشعراء العباسيين – أيضًا – من عرف بالزهد ، ولم يكن من أصحاب المجون ، فأولئك شعراء مُجّان لم يزهدوا ، وهؤلاء شعراء زُهّاد لم يمجنوا ، ولكن الدراسة – فى هذا البحث – تستهدف طائفة ثالثة من الشعراء ، ألا وهى الطائفة التى زهدت بعد مجون ، وتابت بعد انحراف ، وعبّرت عن إقلاعها عن المعاصى والآثام ، فى أشعارها ، وأعلنت عن توبتها ورجوعها عن غيّها فى أشعارها – أيضا – .

وتختلف درجة المجون عند الشعراء ، وتختلف درجة الزهد عند الشعراء – أيضا – ، ويختلف مقياس الصدق فى تصريحهم بالتوبة ، وبالإقلاع عن العبث والاستهتار ، ويعنى البحث أيضا بتحديد هذه الدرجات ، ويرصد البحث ظاهرة التوبة عند بعض الشعراء الذين رجعوا عنه إلى مجون ثانية . ويرصد أيضا ظاهرة الجادة فى القول ، عند شعراء مجان لم يزهدوا ، ليسجل البحث ذلك الاتجاه الجاد عند شعراء العبث والمجون .

وقد يفهم من المجون ، المجون على اتساع معناه ، وما يشتمل عليه من غزل فاجر ، وخمريات ، وغلاميات ، وما يحتوى عليه – أحيانًا – من صرخات لا تحمل إيمانا بالخالق – سبحانه – وتحمل من تمرد واستخفاف واستهتار ببعض أمور الدين أو بالدين كله .

ولا يعنى بالزهد فى هذه الدراسة ، الزهد بمفهومه الخالص ، الخالى من الشوائب ، وهو زهد الزهّاد الحقيقيين ، أصحاب الاتجاه وأنصاره ، من غير الشعراء ، ولكن يعنى به مظهرا من مظاهر توبة المجّان من الشعراء ، حين يكف الشاعر الماجن عن القول المستهتر ، وحين يعلن تعففه ، ويعبر عن توبته ، ويصدر عن قول حكيم فى بعض أشعاره ، ويسدى النصح ، وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى المعروف ، ويندم على ما ارتكبه فى صدر شبابه من مجون ، ويطلب الغفران من ربه .

وقد تعددت الدراسات الأدبية حول المجون ومظاهره فى الشعر العباسى ، وحول الزهد واتجاهاته الأدبية فى الشعر ، واهتمت بعض الدراسات بدراسة ظاهرة التوبة عند شاعر فرد مثل زهديات أبى نواس مثلا ، بينما تجمع هذه الدراسة أبرز الشعراء فى العصر العباسى ، وترصد الظاهرة عندهم ، ظاهرة التوبة بعد المجون ، وذلك حسب منهج موحد يهتم بتسجيل الاتجاه والتحول من المجون إلى الزهد ، وتحليل مبرراته ، وتسجيل مظاهره الفنية والفكرية .

ويستهل البحث موضوعاته بدراسة بعض متغيرات المجتمع العباسى السياسية والاقتصادية ، والعقائدية والاجتماعية ، والتى كان من شأنها انتشار تيار اللهو والمجون عند بعض الشعراء ، باعتبارهم شريحة من شرائح المجتمع ، خضعت لظروف معينة ، ومؤثرات واحدة ، كما كان من شأن هذه المتغيرات ، تحول بعض المجّان من الشعراء إلى التحلى بالزهد ، والاقتناع به ، والتفاخر بالإقلاع عن ألوان المجون التى عرفوا بها .

ولا تغفل هذه الدراسة توضيح دور الحاكم أو المسئول فى ازدهار تيار التوبة عند المُجّان ، أو دوره فى إفشاء موجة العبث والمجون عند بعض الشعراء .

وبعد هذا التمهيد ، تأتى موضوعات الدراسة فى فصول ثلاثة : يبحث أولها فى دوافع الزهد عند الشعراء المُجّان العباسيين ، وتحليل تلك الدوافع المختلفة من شاعر إلى آخر ، فمنهم من زهد فى مجونه امتثالا لأمر الحاكم ، وطاعة لنهى الخليفة ، فأعلن توبته مجبرا ، وتظاهر بالزهد تصنعا ، وهجر المجون خشية عقاب الحاكم لا خشية عقاب الله ، ومنهم من زهد حين حلّت به محنة من محن الدهر ، أو نزلت به نازلة من نوازل الزمن ، كره المجون ، وأقلع عنه ، وكشفت الصدمة الغشاوة من أمام عينيه ، فعاد إلى الصواب ، وفاق من سكرته ، ومنهم من أعلن توبته حين ألم به الشيب ، ودخل فى مرحلة الشيخوخة ، وأصابه ما بها من عجز ومرض وضعف ، وملّ الحياة ، وسأم من متاعها الزائل ، فشعر باقتراب الرحيل وبالفراق ، فبكى على ما فعل ، وندم عليه ، وتاب عن ذنبه ، وأناب إلى ربه ، متضرعا مستغفرا ، وقليلا من الشعراء من زهد عن فكر ، وعن فلسفة ، وعن اقتناع بما رأى فيه صلاحه ، وبما يعود عليه من النفع ، فأظهر التقوى ، وتمسك بها ، ودافع من أجلها ، مخلصا مؤمنا . ومن الشعراء من أراد أن يسهم فى هذا الاتجاه بالقول فى معان لم ينظم فيها شعرا ، ليرضى رغبته الفنية ، أو ليرضى غيره من

الممدوحين ، فشارك فى النظم فى معالجة التوبة والحكمة ، ويتظاهر بالنسك ، ليتجنب موقفا ما ، أو ليساير إتجاها معينا .

ويعنى الفصل الثانى من الدراسة بتحليل عناصر الزهد فى شعر المُجّان ، لتوضيح أهم أفكار التوبة والاستغفار فى أشعار تلك الطائفة من الشعراء الذين اشتهروا بالمجون ، ومن هذه العناصر البارزة ، التوبة والتصريح بها ، ومحاولة الدخول فيها ، ثم الخروج منها إلى المجون ثانية ، والعودة إليها مرة أخرى ، ونقض التوبة ، ورفضها ، ثم الإذعان لها ، ومنها ذم الزمان وشكوى الدهر ، وإظهار الأسى لما حل بفعل الشيب من وهن وعجز ، ونفور النساء ، وهجر المتع ، إلى عناصر أخرى مثل البكاء على الشباب ، وتوقع الفناء ، وانتظار الموت ، وتصوير القبور ، والاتعاظ بالراحلين ، ومنها التغنى بالصبر والتحلى بالقناعة والزهد ، وتجنب الطمع والتناحر على أمور الدنيا ، والدعوى إلى الصالح من الأعمال ، والتحلى بالحكمة ، وتسبيح الله ، والتدبر فى أمور خلقه ، والسمو بالماديات إلى الروحانيات ، وذلك فى نصح مباشر أو غير مباشر من خلال تجربة الشاعر الخاصة .

أما الفصل الثالث والأخير من فصول الدراسة ، فقد أهتم بتحديد بعض السمات الفنية البارزة لزهديات المجان ، وتحديد المعالم الجمالية لشعر التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين ، فإذا كان الفصل الثانى يولى عناية بتحديد العناصر الموضوعية لزهد المجان ، فإن الفصل الثالث قد عنى بتحليل العناصر الفنية لتلك الأشعار التى أعلن فيها المجان توبتهم ، وقد توزع هذه العناصر إلى فكرية : مثل الايجابية أو السلبية ، والشؤم أو التفاؤل ، الخوف والندم ، الصدق والادعاء ، العمق أو السطحية ، وبعض السمات الفنية التى تتعلق بدراسة الظواهر التى لحقت بأشعار التوبة عند المجان ، وتغيرت مظاهر الصنعة الفنية عندهم عما كانت عليه فى أشعار المجون ، خاصة ما يتعلق باللفظ وقوته أو ضعفه ، أو جزالته وركاكته ، وما يتعلق أيضا بالصورة واهتمام بتشكيلها أو سطحية تكوينها ، وعدم الاهتمام بتأليف عناصرها ، كذلك العمق فى التعبير أو السطحية والنثرية ، والاقتراب من لغة الحياة اليومية أحيانا ، إلى آخر تلك السمات الفكرية والفنية التى مرّ بها الشاعر فى حالتيه فى المجون وفى الزهد . كذا اهتم هذا الفصل بتحديد بنية الزهدية وشكلها بين المقطوعة أو المطولة ، والعلاقة بين جزئياتها ، أو بينها وبين بعض فنون الشعر الأخرى ، ومحاولة البعض افتتاح قصائدهم بالتوبة والاستغفار ، حتى يمكن أن تضاف هذه المقدمة إلى مقدمات القصيدة العباسية العصرية والحضارية .

وقد عمد البحث فى منهجه إلى استسقاء معلوماته وأفكاره من دواوين الشعراء ، ومن دراسة النماذج الخاصة بكل مرحلة من مراحل الشاعر الفكرية ، ومقارنتها ، وتحليل العوامل ، وتبرير الظواهر التى برزت فى أشعار المجون وغيرت أصحابه إلى أشعار التوبة والاستغفار .

والاستعانة بمصادر الأدب ومراجعه التى أولت هذا العصر العباسى إهتماما متميزا ، كذلك الاعتماد على الكثير من الدراسات الأدبية ، وآراء أصحابها من الباحثين القدماء والمحدثين ، حول هذه الظاهرة التى يهتم بها البحث ، حتى تحقق الدراسة هدفها فى تحديد ذلك الاتجاه البارز اتجاه توبة المجان ، وزهدهم فى مجونهم ، وهو مما لاشك فيه يعد من أبرز الاتجاهات الأدبية فى العصر العباسى .

والله نسأل أن يحقق به النفع ، أنه سميع مجيب ، ،

دكتور - على إبراهيم أبو زيد
العين - أبو ظبى - ١٩٨٦
أستاذ الأدب بجامعة الإمارات العربية المتحدة
وجامعة المنصورة